الوهج

قصة من الادب الروسي

كتبها لودفيك اشكنازي

ترجمة : هدى السيد

ولد لودفيك اشكنازي عام ١٩٢١ ، وعمل كمحرر وصحفي ناجح ، كما اشتهر ككاتب قد اسهم في النهضة الادبية الحديثة في تشيكوسلوفاكيا — وفي اثناء الحرب الماضية اشترك لودفيك في صفوف الجيش السوفيتي . واستدعى عمله كصحفي ان يسافر الى عدة اقطار كبولاندا والمانيا ، والولايات المتحدة وغيرها — وقد سطر صورا ادبية رائعة بادىء الامر ، ثم ظهرت موهبته القصصية في كتابة القصة القصيرة الناجحة .

— الوهج —

بدا ستانيسلاف برانك عامل الصهر ، وقد ابلاه المرض وجارت عليه السن ، وظهر شعره وقد شاب البياض مما اضاف الى عمره سنوات ، وكساه مظهر الشيخ العجوز ولو لم يكن طاعنا في السن . كما تباهى الى علم الجميع انه مصاب في عضلة القلب ، وقد اكد ذلك — حمار رسام القلب الموجود في عيادة عيادة العمال بان ظهرت خطوطه مضطربة غير منتظمة — وذات يوم وبينما هو يمارس عمله كعادته واقفا امام مرحل الصهر ، اذ بقوته تخونه ، فيسقط في اعماء طويله . اسرع اليه زملاؤه في المصنع يقدمون له يد العون . كان وجهه شاحبا كالموتى ، يسبح في سيل من العرق البارد .

وقد ظل ستانيسلاف برانك ، عامل ثلاثين عاما ، يسهر ليله امام مرحل الصهر ، يعمل في ورديات ليلية زهاء الصهر وينام نهاره طلبا للراحة — وهكذا مرت السنون وولت ، وولت معها صحته وقوته . خفتت دقات قلبه وعجزت ساقاه عن حمله ، وظهرت العلامات الحمراء والخضراء تتراقص امام عينيه ، فجر صريعا من فرط ضعفه واعيائه نعم لقد قضى ستانيسلاف برانك السنين الطوال عاملا امام مرحل الصهر المتأجج حتى امتص هذا الأتون الجبار نضاح عظمه ... اليس من الافضل ان يمنح اجازه حتى يسترد صحته !

وهكذا ارسل عامل الصهر العجوز الى مدينة بوديبراوى سبا ، كي يعالج بالحمامات الصحية ، ويظل تحت الاشراف الدقيق . وكان بين القبه والقبة يقضي بعضا من الوقت في ظله الملك جورج — ذلك المكان الجميل

وهناك في حديقة القصر كان يجلس أمام الباقورات الجميلة شاردا ، يتأمل في صمت المياه المتدفقة من عيونها تتراقص في تيه ودلال . ثم يمسك بعصاه ويخط بها على الرمال رسوما غريبة، تمثل أشكالا متباينة من الأسماك والأزهار . وفي بعض الأحيان كان يتذكره بي قارب شراعي في نهر الالب الى بلدة « كولين » . كان يرى مستندا بذراعه الى حافة القارب ، وقد ارتسمت على صفحة وجهه أمارات الأسى ، يشخص ببصر شارد الى أمواج البحر الحالمة وهي تتلاحق في رفق وجمال ، وبينما كانت تنساب مياه النهر على هذه الصورة ، كان (ستانيزلاف برانك) يسترجع في مخيلته طائفة من الذكريات ... صورا أخرى لأنها مشابهة يعرفها حق المعرفة ، ولكنها من نوع آخر فمياهها الحديد المتصهر . كان يراها بعين خياله وهي تتدفق نقوه جارفة من خوف المرجل الحمار . ثم يلمح صورا حافلة متوهجا يتصعد من كل مكان ... بالة من مشهد تهفو اليه نفسه وتحن لرؤياه عينه . أخذ يفكر في الانسان وقوته وكيف انه قادر على السيطرة على مثل هذا النهر ، الذي يتدفق على صفحته ، والتحكم في مصيره تماما كما يفعل هو (ستانيزلاف برانك) عامل الصهر عندما يقف أمام مرجله في المصنع . أليس هو المسيطر حينذاك على المعدن الذي في جوف المرجل ، والمتحكم في مصيره ؟

شده الحنين الى وطنه (أوستريغا) فعاد اليه فحاء غير مبال بصحته أو علاجه ، وقد أخذ منه المرض مأخذه فبدا أكثر ضعفا وأشد هزالا . ومع ذلك آثر أن يذهب الى بيته من المحطة سيرا على قدميه . ليطأ أرض بلاده العزيزة ويدوس ترابها أطول مدة ممكنة . بدا وجهه مشرقا تضيء عيناه بالبشر والسعادة ولا عجب في ذلك فهو يتنفس هواء وطنه بعيدة المشحون بدخان المصانع المتكاثف جدا .. ما جدوى بلد جميل مثل « بروديبري » بالنسبة له ، انها ليست الا جنات وارفة بحدائقها المشرقة ، يأوي اليها المرضى وكبار السن طلبا للراحة والاستجمام .

اما أوستريغا وطنه الحبيب فهي مدينة صناعية تضج بالنشاط وتتلألأ الحياة . وأخيرا وصل الى بيته ، وقد آثار ظهوره المفاجيء دهشة بالغة . فما ان رأته زوجه حتى تشابكت يداها في ذعر وصاحت مستنكرة :

— من أين جئت ؟

ثم اضافت بحنق :

— ليس عندي من الطعام سوى قدر من البطاطس المهروس !

وفي اليوم التالي فحصه طبيب العمال ، وهز رأسه شك وعدم ارتياح كما أشارت خطوط رسام القلب الى أن الداء لا يزال كامنا في جسده . ووقف (ستانيزلاف برانك) بعد ذلك في أمر فزاره المفاجيء من «بروديبريدي» والداعي اليه . وظهر من أحاديثه أن عامل الملل الذي ادركه ، وأصاب نفسه مدة اقامته هناك كان الدافع الذي أوحى اليه بالفرار منها . ولكن في حقيقة الامر : كان هناك سبب آخر أكثر أهمية وأبلغ أثرا في نفسه . فقد تسلم ذات يوم وهو في استجمامه (بروديبريدي)

رسالته من ابنه (توماس) هذا فحواها

والدي العزيز ،

انا لا اذكرك دائما بقدر ما تعتقد . ارجو ان تكون مسعا لتعليمات الطبيب ووصاياه بدقة متناهية ، ما اشوقنا اليك يا ابتاه . اخبرك انني قررت نهائيا ان اكون مثلك ، عاملا لصهر المعادن . لا تحاول ان تقنعني بتغيير رايي او تثنيني عن عزمي فاني على يقين تام انا قادم عليه .

اخبرك ان (ماتشي) كرة القدم الذي جرى يوم الاحد ، كان ضعيفا للغاية . وانه لي حسن الحظ انك لم تكن حاضرا حينذاك ، فلا شك ان مشاهدتك للاعبين كان ليثير اعصابك حتما ؛ فقد اصاب «انتشي» هدفا ولكن في مرمى فريقه — الست تراه أحمقا متهورا ؟

مرة اخرى انا نتشوق الى ابصارك، كما نفتقد وجودك بيننا . واخيرا ارجو الا تكثر من شراب البيرة .

ولدك المخلص

توماس

وفي الواقع ان هذه الرسالة كان لها وقع كبير في نفس « ستانيزلاف برانيك » بل كانت الدافع الاساسي الذي حدا به الى الفرار من (بوديري) والعودة الى وطنه — ذلك انه رغب في ان يناقش ولده في امر جلل .

ولاذكر الآن شيئا عن العرف القديم الذي كان سائدا بين الفقراء — والذي كان يحتم على الابناء ممارسة حرفة آبائهم تشكل آلي — فمثلا اذا كان الوالد اسكافيا فلا مناص للابن من ان يجد مكانه بين اصحاب هذه الحرفة . وبمعنى آخر كان لكل مكانه الخاص به والمرسوم سلفا له ، ولم يكن له الحق في ان يختار سواه من الاعمال . وكان من السائد ايضا انتقال ادوات الحرفة من الاب لابنه بطريقة تلقائية ، كمثقب الاسكافي وابرة حائك الملابس، ومصباح عامل المنجم ، تماما كما ينتقل العرش الملكي من الملك الى ولي عهده نعم لقد جاء وقت كان عامل المنجم ياخذ بيد ابنه ويقوده الى أعماق الارض حيث منجم ، دون مبالات لرغبات ولده والتعرف على حقيقة ميوله نحو العمل الذي ترضاه نفسه . وربما كان هذا الابن موسيقيا بفطرته ، يسهر الليالي يستمع الى فرقة موسيقية بالمذياع ، فاذا ما طلبه النوم ، راى في نومه صوره الكمان والناي . يذهب الى الكنيسه ليشنف سمعه بصوت الاذعن الرنان ويقضي الساعات الطويلة امام نافذه المحل التجاري ، يمتع ناظريه برؤية آلة الاكرديون وهي تنزلق بريق لامع جذاب ان مثل هذا الفتى ولا شك موسيقيا قلبا وقالبا . ومع كل ذلك ترى والده يقوده الى سجن المنجم بدلا من ان يعهد به الى أستاذ كبير في معهد موسيقى ليصنع منه عازفا موسيقيا فذا . وهكذا كان العديد من العمال يذاقون البؤس والتعيس من اجل لقمة العيش. الم يصحوا برغباتهم ويكبتوا مشاعرهم تحقيقا لعرف عتيق موروث . وكم من موسيقي بصارع بيتهوفن براعة صلت نفسه وشردت روحه بل ظل حبيس اراء قومه الرجعيه وتقاليدهم البالية التي تضحي بالقيم فلا تحسب لها حسابا . وفي نفس الوقت كانت فتيات

الطبقة الثرية يشغل اوقات الفراغ في بيوتهن بالعزف على البيانو عزفا مشوها مضطربا لمجرد التسلية ـ وهكذا كانت الموهبة وليدة المال وبنت الثراء فان كنت مثلا ثريا فلا شك انك موهوب .

اما الآن فالأمر قد مختلف ـ وليس بنا حاجة لمناقشة الموضوع تفصيلا . فمن العزف على البيانو مثلا لم يعد مسألة ثراء ، أو درجة علمية يشتريها الطالب بمحض من مال والده الوفير أو جاهه العريض . نعم ليس الآن مايمنع ابن الاسكافي من أن يصبح أستاذا في اللغات الشرقية اذا ماظهر ميله اليها ونبوغه فيها . أو أن تكون ابنة عامل المنجم شادية طيروب لموهبة كامنة في نفسها ، أو أن يصبح ولد عامل الصهر طبيبا بارعا ... ومن هنا يمكننا أن نصل الى معرفة بعض من رغبات « ستانيرلاف رابك » الخفية ، والتي عاش عمره يسعى النفس بتحقيقها . ومن المعروف أن كل فرد منا يحتفظ في أعماقه بآمال وأحلام كبار، يترقب أن يحين اليوم الذي تقر فيه عينه بتحقيقها . كان عامل الصهر المحور يقدس حلما عزيزا عليه ويطرب كلما اختر ذكراه . لقد كان يرى ابنه دائما ـ يعيش خياله ـ وقد ارتدى معطفه الابيض وحقيبته الاملس يطوف من سرير الى آخر في احد عنابر المستشفى ... وفي يوم العطلة يعود الطبيب توماس الى بيته ، فتهرع اليه والدته تحمل عنه حقيبته الطبية ليتوجه الى الحمام فيغسل يديه

هذه كانت أحلام «ستانيرلاف الشيخ» وأمانيه الكبار . لقد رغب أن يرى ولده توماس طبيبا في يوم ما . ولا يفهم من ذلك أنه كان كارها لحرفته صحرا

ها ، لا بل كان شغوفا بها وفيا لها ، يود لو استطاع أن يمضي مابقي من عمره فيها ـ لقد ترك على كل قضيب من الحديد تناولته يداه ، جزءا من قلبه المتفاني ومزا لولاء ذلك الشغف المحب الذي يكمن الآن حائرا بين ضلوعه . ولكن مع كل ذلك باغت نفسه ان يرى ابنه وقد اصبح طبيبا مرموق ـ ومن أجل ذلك فر من « بودينبروك » وآثر عائدا الى وطنه ، ليتدبر الامر ويتقصد الموقف .

كان « توماس » يافعا يردهر في مطلع الشباب يناهز الخامسة عشرة ربيعا .

ولما افضى اليه والده برغبته الصارخة بالنسبة لمستقبله ، أجابه على الفور

ـ انك لا تزال تتشبث يا أبت بالافكار الرجعية البالية .

لقد كانت هذه هي الطريقة الجديدة التي يخاطب بها الاولاد آباءهم في هذه الايام ، ولذا استولت الحيرة على الاب المسكين ، ولم يسعه سوى شفة ، وكل مافعله أنه نهض من مكانه يذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطوات واسعة

وأخذ يستعرض صورة ابنه في مراحل نموه المختلفة ويرى كيف اصطبغت معها وجهة نظره بالنسبة للعمل الذي يود ان يمارسه في مستقبل حياته . فمثلا عندما كان في الثالثة من عمره رغب في ان يكون سائق سيارة . ولما بلغ الخامسة أقسم ان يكون بحارا ، وأخذ يشكل قوارب صغيرة من الورق ، ويلقي بها في احدى جداول نهر «اوستريغاء» ، ويضع على رأسه قبعة بقشت عليها بالخط العريض (ذئب البحر) . وفي سن

العاشرة قرر أن يكون عالما مخترعا ، وما أن بلغ الثالثة عشرة من عمره حتى عقد العزم على أن يكون طبيبا ، ومنذ أيام ثلاثة فقط احتفلت أفراد أسرته بعيده ميلاده الخامس عشر وتقدمت اليه بهذه المناسبة دراجة ، وبعض المطبوعات الشعرية . وفي هذا اليوم كان والده يرمقه ، طول الوقت ، بعين الفخر والاعجاب ، ثم يسرح البصر ويتأمل في عمق ، يا لها من حياة حلاقة تصنع المعجزات دائما . فمنذ خمسة عشر عاما سمع صيحة ابنه الاولى التي بها استقبل الحياة وقد بدا بوجهه الاحمر وأنفه الصغير ، وراسه الملساء . ثم رآه بعد ذلك طفلا يرقد سعيدا في مهده ، وسمع ضحكاته البريئة التي يشع منها البهجة والمرح . ثم مرت السنون ... ونما معها توماس حتى صار طبيبا يافعا في شرخ الشباب ... كما يبدو الآن !!! كذلك ولي الزمن الذي كان يعترض فيه الآباء طريق أبنائهم ، ويرسمون لهم مستقبلهم كيفما شاءت تقاليدهم البالية . . نعم ان جميع الابواب مفتوحة أمامك يا توماس ، وعليك أن تفكر وتختار أحدها .. وأخيرا اختار توماس والتحق وهو في سن مبكرة باحدى المدارس الصناعية ، التي تؤهله مهنيا لان يكون حدادا . وفي هذا الوقت أحيل والده الى المعاش ، وكان يقضي فراغ وقته في تنسيق حديقته الصغيرة ، ومطالعة بعض الجرائد والمجلات . ومرة أخرى أرسل الى بلده « بودينرديدي » للاستجمام والراحة ، ومرة أخرى فر منها مهرولا قلقا كريشة في مهب الريح ، ذلك أن مدينة « أوستريا » ـ وطنه الحبيب ـ القاتمة بدخان مصانعها والتي تصبح دائما بالضوضاء والحركة ـ كانت شديدة البغض الى نفسه ، كما تشد النحلة النحلة الهائجة . ولا شك ان هذا الحنين الدفين الى « اوستريا » كان السبب الاقوى الذي جعله عبدا لعاداته غريبة ، اليك تفاصيلها بايجاز

في الساعة الثانية من صباح كل يوم ، اعتاد « ستانيسلاف برانيك » عامل الصهر العجوز أن يهجر فراشه مستيقظا في الظلماء ، لقد كان هذا الوقت على جانب كبير من الاهمية في حياته . ولا غرابة في ذلك فقد اعتاد فيه أن يفتح صنبور مرجل الصهر في المصنع ليسمح للحديد المنصهر أن يتدفق من فوهته كالسيل الجارف .

حقا لقد ولت هذه الايام الى غير رجعة ، ولكنه لا يزال أسير حبه لها ، يتملكه الحنين كلما عاودته ذكراها . فاذا ماوقفت الساعة معلنة الثانية صباحا نهض « برانيك » من فراشه ، واشعل عود ثقاب ، يبحث على ضوئه موضع العكاز حتى يجده ، ويهدوء وحذر يتلمس طريقه الى النافذة ... تريث أيها العجوز واحترس ، لا تتخبط في الاثاث هكذا .. أتركل هذا المقعد مرة اخرى ؟!

ثم يفتح النافذة ويملأ صدره بشهيق طويل من هواء الليل المنعش ، ويشعل عودا آخر من الثقاب ، فينظر الى ساعة الحائط ليتأكد من حقيقة الوقت .. ان عقارب الساعة تشير الى الثانية صباحا .. انها الفحطة المشؤومة في حياته . وفي نفس الوقت تتحرك زوجه في فراشها متظاهرة بالنوم .. هذا كل ماتستطيع أن تفعله بعد أن عاهدته أن تتركه وشأنه ولا تتدخل في أموره الخاصة أبدا . وهكذا يظل « ستانيسلاف » واقفا امام

الساقية . وقد قاص من بحثها بهر « أوستراجيس » تتهامس امواجه فى رقة وعذوبة . بينما تهب نسمات الليل العليلة تتعطر الجو بأنفاسها المعطرة وأريجها الفياح . هذا اذا كان الوقت ربيعا ، اما ان كان صيفا فانه يرى ذرات الحديد والفحم ، وقد تناثرت هنا وهناك وختلطت بحبوب اللقاح المنتشرة بين الاشجار والازهار تتراقص أمام الساقية مرحة طروب . فاذا ماجاء وقت الخريف يرى « ستانيزلاف » واقفا يرقب الحبوب المنثورة على صفحة الماء ، تتألق بريق خاطف لايلبث أن يختفى فى عالم مجهـــول ... ثم يأتى زمن الشتاء ، واذا بكل شىء هادىء ساكن ـ تتساقط حبات الثلج فتلبس الطبيعة ثوبا قشيبا ناصع البياض . كل ذلك يحدث وهو قابع فى مكانه المقدس أمام الساقية يسرح النظر فى تلك المشـاهد الخلابة وينتظر اللحظة الموعودة ...

... ان الطقس بارد أيهـا العجوز ، وعليك أن تدثر بدثار صـوفى تحتمى به من البرد .

هـكذا تردد روحه القلقة ، ولكنه لا يأبه لقولها .. ويظـــل واقفـا فى مكانه .

وتستمر ســاعة الحائط فى دقاتها المنتظمة تطوى الثوانى فالدقائق وتطوى معها الزمن . وبغتة يسطع فى السماء وهج متألق ، يبدو احيانا وقد امتزج به وميض ازرق لامع ، وأحيانا أخرى يسطع هذا الوهج فى لون برتقالى متلألىء يشوبه بياض صـدفى . اشبـه مايكون بلون السحب وقت الغروب ... انها اللحظة المنتظرة التى فيها يتدفق الحديد المنصهر من فوهـة المرجل معلنـا مـيلاد حديد حديد . ويستمر « ستانيزلاف براتك » شاخصا الى صـوء الوهج حتى يخفت ويذوب فى الظـلام . وعندئذ تتحـرك روحه فى الفراش من حديد وتسمع صوتها فتسأله بحنان :

ـ هل رأيته ؟

ويجيب ستانيزلاف براتك فى اقتضاب :

ـ نعم .

وبعد لحظات من السـكون الشامل تعود الروحة فتقول فى ضجر

ـ أتدخن من حديد ؟

ويجيبها الرد فى صورة شرارة لامعة تنبعث من عليون روحها ، كعين صغيرة حمراء تختلس النظر فى الظلام ـ ثم يتناهى « ستانيزلاف » يتكاسل ويقول بسرات ناعسة

ـ نامى يا امراة !

ـ انى نائمة يا عزيزى .

بهذه العبارة القصيرة تهمس الزوجة فى طاعة وعذوبة ، ولو أنها اعتادت ألا تنام فى مثل ذلك الوقت من الليـل ـ فقد كانت امراة عجوز ، تؤثر التفكير فيما يشغل بالها من امور الحياة التى تعنيها ، كازرار قميص زوجها لا سيما هذا الذى يقبع خلف الياقة ... فقد انى القدم على الخيوط التى تثبته باليأقة فتآكل معظمها وأوشك على السـقوط . نعم لم يبق هناك سوى خيط رفيع واهن يتشبث به ...

اما « ستانيزلاف براتك » فـكان يأوى الى فراشه يتمطى فى راحة ورضا بينما تحملق روحه فى الظلماء وقد ارتسمت على صفحة وجهها ابتسـامة معبرة فيها معنى التسامح . ثم تهجس

في نفسها ... انك تستيقظ دائما في الثانية صباحا ، اليس كذلك ؟ افعل ما شئت فاني لا أتدخل في شئونك الخاصة كسابق عهدي لك . وعلى كل فلا شك أن الأمر يكون أشد سوءا ، لو كنت تقضي هذا الوقت خارج البيت ، فلا تعود الا في الثانية صباحا .. انك تترقب ظهور الوهج .. هكذا ترعم .. وعلى أي حال فاني لا اغار من تلك الشابة الصغيرة ـ بل أنصحك ألا تكف عن التطلع اليها حتى ترتوي عيناك ، وتشبع نهمك أيها الأحمق ...

ورغم تلك الهواجس ، كانت دعاري برانك ، ـ كروحة مطيعة ـ تترك روحها وشبابه يستمتع بحلوته البريئة في شغف وامتنان ـ بعد أن كانت في مبدأ الأمر لا تكف عن التشاجر والتشاحن معه ، فمن ذا الذي سمع عن أسرة محافظة ، يستيقظ افرادها ، في مثل هذا الوقت من الليل ... لماذا لا تأوي الى فراشك فتنام أيها المخلوق المزعج .. افعل هذه الفائدة يا (سنابيرلاف) !! افعلها من فضلك ... فالطعس فارس البرد ..

ولكن مع الوقت اعتادت منه هذا الأمر ... فكانت تستيقظ مع رجلها المحبور ، تتطلع اليه خلال حقونها المتكاسلة ، وهو يحج الى الفائدة بوله وخشوع ـ وهكذا وهكذا تظل تغطه حتى يعود الى فراشه ، ويغيب عن نفسه في نوم هادىء عميق .

وعلى أي حال لقد انتهت مغامراته الليلية أخيرا ولن يستيقظ في الظلام بعد الآن ، ليهرع الى الفائدة .. كالعذراء العاشقة يشدها الشوق فتهب في خوف الليل تترقب ظهور الحبيب .

وذات يوم عاد برانك الشاب من معهده الصناعي ، الذي التحق به أخيرا ، بعد أن تبخر تماما ذلك الحلم الذي داعب خياله المتعلب من وقت قريب . هش والده للقائه وأسرع اليه يعانقه كرميل وليس كوالد فحسب ، ثم أخذ ينصت اليه باهتمام وهو يتحدث عن موضوعات يجهلها تماما ولا يعي منها شيئا ، ومن حين لآخر يعلق عليها بضحكات تشوبها الحيرة والارتباك ـ مثال ذلك قول الفتى .

ـ لقد عالجنا اليوم بالدراسة والبحث مسائل وعمليات (أشعة اكس) التي تحقق خلو مادة الصلب من العناصر الغازية .. لا شك يا أبي أنك لا تعرف شيئا عن ذلك .. انها مسألة لا تتعلق بالحديد، بعيدة تماما عن مرحل الصهر، أو أن يقول

ـ اذا وصل التبريد الى درجة غير كافية ، فلا يمكن الحصول على النتائج المطلوبة ... ارايت يا والدي النظريات الحديثة ، اشعة اكس وخلو الصلب من العناصر الغازية .. ماذا تعرف أيها الشيخ عن هذا كله ؟

ثم يتملكه الغرور والزهو فيقول

ـ الا فاسرع الى ابنك (توماس برانك) عامل الصهر الشاب ، وانحني امامه تصديرا واسأله بلطف وادب ان كان يسمح لك بالتحدث معه .

لقد أطاح الشيطان بعقل الفتى !! هكذا فكر الأب مشدوها ... يا له من تطور عجيب ، فقديما عندما كان طالبا يتعلم الحرفة كان كل ما يعنيه من أمر (التبريد) ، هو التأكد من أن خراب البيرة الذي كان يحتسيه سيده ـ رب

الحرفة ـ متلهفا دائما ، اى فى درجة البرودة المناسبة ، اما الآن .. فيالعجب ما سمع ... اذا وصل البريد الى درجة غير كافية ، فلا يمكن الحصول ـ ثم أحد يهجس فى نفسه !

ـ انظر ايها المغرور حتى تتلاقيا معا .. أنت ومرحل الصهر ، وعندئذ سوف نرى مادا أنت فاعل يا سيد (اشعة اكس) .

ثم جاء اليوم الذى اقبل فيه (توماس برانك) الشاب بأكتافه النحيفة وقال

ـ ان اليوم موعد أول تجربة نقوم بها لصهر المعادن يا أبتاه ..

ـ ولكن فى أى مراحل ؟

هكذا نطق الأب فى حيرة وارتباك . واجاب توماس على الفور !

ـ فى مراحلنا الحديثة .. الا تذكر مرحلك الذى كنت تستعمله فيما مضى ؟

وبهدوء ظاهر قال (ستانيرلاف جرانك)

ـ مرحل أنا ؟

وبدا عليه الضجر فحول دفة الحديث.

وجلس أفراد الأسرة يتناولون طعام العشاء ـ كان الوالد شارد الفكر ينظر الى ولده فى وجوم .. وخرج من صمته وسأل مستفسرا !

ـ ومن الذى سيتولى عملية صب المعدن من المرحل بعد أن يتم صهره يا ولدى ؟

أجاب توماس على الفور !

ـ انا يا أبت ، وهذه الليلة بالذات.

وما أن سمع الوالد هذه العبارة حتى شرد مرة أخرى ... ان الوقت المناسب للقيام بهذه العملية الكبيرة لم يحن بعد، انها لحظة بالغة الاهمية ، ليس فيها محال للتهور أو الغرور ، وحتى ان كان هذا الغرور ناتجا عن كفاءة ظاهرة ، فقد يخطىء المرء وتأتى الرياح بما لا يشتهى السفن ... رباه من كان المتحدث ؟ وهل يكفى هذا الهراء ليقوم دليلا على الكفاءة والمقدرة ؟ وعلى كل لننظر .. وان غدا لناظره قريب ، أيها الشاب الرشيق ... نعم غدا سوف نرى مادا أنت فاعل ... آماه ـ هكذا كان ينادى روحه أحيانا ـ لاتنسى أن تصغى مطفى الصوفى فى حقيبته ، فالطقس عادة يكون قارس البرد فى مثل هذا الوقت من الصباح الباكر .. ولا شك أن جسم الغلام النحيل سوف يكون ملتهبا من شدة حرارة الرجل الذى يقف أمامه لاول مرة ، وقد تعصف به الريح الباردة ـ وهو يغادر المصنع ـ دون رحمة أو شفقة فلا يدرى الصغير مادا يفعل وابن يلود !!

ثم أخذ يهجس فى نفسه من جديد ، ترى هل سيعرف كيف يتحقق من درجة حرارة الموقد ؟ وعما اذا كانت هى الدرجة المناسبة .. أم لا ؟ وعلى كل لن أذكره بذلك ولن أزوده بأية معلومات ضرورية.. حتى يخوض المعركة بنفسه فيعرف كل شىء عن هوايته المشبوبة وهو يقف وجها لوجه أمام مرحله العزيز ...انه فى حاجة الى حلة جديدة مناسبة بعد أن صغرت عنه ملابسه ، فهو دائم النمو كالشجرة اليانعة .. واذا ما غادر ولده البيت ، صاح ستانيرلاف ينادية

ـ لاتنسى ياولدى أن تتأكد من حرارة الموقد قبل أن تبدأ مهمتك .

ـ حسنا يا أبي .

هكذا أجاب توماس باقتضاب ليسكته ثم اختفى في الظلام .

أخذ الروحان يتحدثان طويلا في هذا الشأن ، واتفق رأيهما على أن ظهور عمال الصهر المهرة أمر نادر الوجود على عكس الاطباء مثلا فان عددا وفيرا منهم يظهر في كل زمن . ثم مال ستانيرلاف بحديثه الى موضوع (أشعة اكس) فقال انه ليس بالأمر الهين . ثم سأل روحه قائلا :

ـ هل تعرفين يا أماه ما المقصود (بأشعة اكس) وعلاقتها في تحقيق حلو الصلب من العناصر الغريبة ؟ .. لا شك انك تجهلين الصلب لذلك .. ولك العذر كله ، فمن أنت حتى تعرفي هذه الأشياء ؟

ثم ذهب كل منهما الى فراشه ، وفي تمام الساعة الثانية صباحا ، استيقظ (ستانيرلاف) من جديد واشعل عود ثقاب ليرى على ضوئه مكان حقه ، ثم اتجه الى النافذة ففتحها على مصراعيها ووقف شاخصا الى السماء وقد لفها الظلام الحالك . كان القمر يتوسط كبدها يسبح ، في نوره الفضي خلف السحب السيارة المنتشرة هنا وهناك يداعبها بلمسات أشعته الخابية ، بينما تسرب بعض منها خلال النافذة فأضاء صفحة ساعة الحائط القائمة على جدار الحجرة ـ كانت الثواني تدق دقاتها المميزة الوئيدة ، ثم يتحرك المؤشر الكبير قليلا من مكانه معلنا زوال دقيقة من عمر الزمن وميلاد ثانية جديدة .. وهكذا مرت دقيقة ثانية ، فخمس ، فعشر و (ستانيرلاف ترانك) لا يزال في وقفته الخالدة يشخص الى السماء الداكنة بعينين تشع منهما الحيرة وقد بدأت عروقه من فرط القلق والانتظار ولكنه لم يسمع سوى صفير القطارات يدوي صداها في الفضاء الساكن ، ولم ير الا أنوارا باهتة تنبعث من أماكن بعيدة نائية .. مرت ساعة على هذه الحال ، و (ستانيرلاف) في وقفته تلك يستطير بقلق بالغ أن يظهر الوهج المضيء كسابق عهده ولكن دون جدوى .. ثم بادرته روحه مارى مستفسرة :

ـ ما الخبر ؟

ولكن (ستانيرلاف) الشبيح ظل صامتا لم يجر جوابا ، اذ تملكه القلق واتجه بكل حواسه الى السماء في صمت وقنوط ، ثم همس في نفسه بخوف :

ـ رباه .. ماذا عساه قد حدث ..

وبعد مدة طالت نفد منها صبره ، اغلق النافذة وعاد الى زوجه . كان يسير بخطى وئيدة مترددة ، كما يسير الاطفال المذنبون في المدرسة حيث مكتب الناظرة للاعتراف بخطئهم ـ وهم مضطرون ..

عادت مارى تسأل :

ـ هل رأيته ؟

ـ كلا ..

هكذا احابها باقتضاب ونظره لايزال معلقا بالسماء . ولأول مرة تعبر الظلام الذي كان يسود دائما في مثل تلك الليلة ، فقد هبت مارى من فراشها لتكون بجوار زوجها أمام النافذة . ووقف الزوجان يأخذ رائعة واحد متشابكة يشخصان بنحو الجنوب الى صوب المكان الذي يمكن أن يرى منه ضوء الوهج

المسيحيت من المرحل لحظة صلب المعلم المصلح ... خلت ماري على هذه الصورة ، وقد بدا وجهها مضيئا تتضح ملامحه بالبشر والخلق الكريم ويلمع في عينها بريق المحبة والوفاء ... كانت ترتدي قميص نومها الابيض وتدثر فوقه بدثار صوفي نسجت خيوطه يداها النحيلتان وفي قدميها حذاء اتى عليه العدم فمزق أوصاله تمزيقا .

ـ يالله من مشهد رائع حقا هذا الذي بدا عليه الروحان لحظتئذ ، والله انه لجدير بأن تتزين من اجله السموات فتلبس احلى حللها واكثرها نورا وضياء ، ليت السماء تحقق هذا الرجاء فيهدأ بال الروحين ويستقر حالهما ولكن وامعناه .. لقد ابت السماء الا أن تظل في لباسها الداكن تزينه النجوم بريقها الدلالي .

همس (ستانيرلاف) في نفسه من جديد .

ـ ربة ... ماذا حدث .. اني اتمزق قلقا .. ترى ماذا جرى ؟

ثم خاطب زوجه

ـ اعطيني حاجياتي يا أماه .. اني ذاهب الى هناك ...

تصاحت الزوجة في ذعر بين

ـ ولكن الى اين ؟ ... ان الوقت جاوز منتصف الليل ..

ولكنه ما جدوى النقاش مع مثل هذا الرجل المحور العنيد ... لقد ارتدى ملابسه ووضع القبعة على راسه باحكام وامسك عصاه واندفع الى الخارج مهرولا ... انه ذاهب حيث ولده توماس ليتعهده من هناك محقق ... وما ان وصل الى المصنع حتى لمحه الحارس فاحد برمقه من رأسه الى قدمه مذهولا وكانه راى شبحا في الظلام أو مسه شيطان من الجن ، اذ لم يحدث أبدا أن راى عاملا أحيل الى المعاش يعود الى مقر عمله في مثل هذا الوقت . فور الفجر أوشك أن يبشق ... تجهم وجه (جاقندا) الحارس وبدا عابسا غضا ... ولا غرابة في ذلك فانه يعد التعليمات الرسمية ولا يحيد عنها أبدا ، ولو كان القادم صديقه الحميم .

وبادره (جاقندا) مستفسرا .

ـ الى اين انت ذاهب ؟ أ الى العمل ؟ اني لن ادعك تدخل ... ما بالك تنظر الى هكذا يا (ستانيرلاف) ـ اني اعد التعليمات الرسمية ... انه عمل كما تعلم .. ولا بد من المحافظة عليه ..

أجاب (ستانيرلاف) على الفور

ـ وانه عملي انا الآخر ... اني ذاهب لأرى ابني ... ثم اضاف بحنق

ـ ألا تعرفني انا يا جاقندا ؟ أم ترى نسيت ؟

ـ طبعا اني أعرف جيدا .

هكذا أجاب الحارس متردد الملحوظ .

ـ اذن من انا .. اقصح .. اجب ..

ـ ستانيرلاف ... نعم انك ستانيرلاف ..

وعاد ستانيرلاف يردد صائحا وقد تملكه الهياج

ـ من انا ...؟

ـ من تكون ؟ احمق عجوز . هكذا أجاب جاقندا بسرور الظافر .

ـ أو تسمح لي بالدخول ؟

ـ كلا لن أدعك تدخل ٠

ـ ماذا تقول ٠٠ لن تدعني ٠

ـ اني لا استطيع تحمل السماء يا (ستانيرلاف) ٠

ـ (جامدا)٠٠٠ تهدد الكلمة همس (ستانيرلاك) محاطبا الحارس ـ بينما نظر اليه الاخير بدهشة وحيرة ٠ وأخيرا عاد اليه هدوءه وقال بلطف

ـ اذن فادخل ٠٠ ولا تمكث طويلا٠

ثم أخذ شهيقا عميقا كمن افاق من غيبوبة طويلة ـ وهي الواضح ان أتى حارس آخر في مكانه ، ما كان ليدع ستانيرلاف يدخل المصنع حيث يجري العمل الذي وهبه حياته حبا ووفاء ٠

وما ان دلف ستانيرلاف المصنع حتى اعتراه الذهول واستولت عليه الدهشة البالغة انه الفى نفسه شاخصا الى ذلك المشهد الخالد الذي نقشت معالمه في نفسه طيلة ثلاثين عاما ـ ظل فيها واقفا أمام المرجل المتفجر بمعدنه المنصهر ٠٠

لقد كان كل شيء على حاله ، بخار المراجل يتصاعد في حركات لولبية كالافعى مصدرا فحيحا مدويا ، واصوات الآلات الحجارة تتصلصل فتهز ارجاء المصنع هزا ٠ ووهج المعدن المنصهر يتأجج بوميض يتلالا حينا ويخبو حينا آخر٠٠ لقد كان كل شيء على حاله ـ ثم راى (توماس) ولده يقف أمام مرجله ـ في الوضع الصحيح ـ عندئذ شد نفسا عميقا من بين ضلوعه الواهنة ، تماما كما يفعل متسلق الجبل اذا ما وصل الى القمة ـ حقا لقد كان كل شيء في مكانه المألوف ولم يكن هناك من منظر غريب سوى منظره هو ، وهو يسير بخطى وئيدة متوكئا على عصاه وسط فرقعة الآلات وقد كساه الكبر مظهر المهابة والوقار ٠ رآه ابنه توماس ورفاقه فاستولت عليهم دهشة مذهولة وأخذوا يحدجونه ، بنظرات شاردة مستطلعة وكأنهم يتوقعون في لحظة واحدة ان يدوب الرجل المحور ويتحول الى بخار٠ ولكن (ستانيرلاف برانك) ألفى على المكان نظرة مجربة شاملة وقال مخاطبا ابنه

ـ حسنا يا سيد اكس راى ٠ ترى انتصب العرق من جسمك كما ينبغي ؟

أجاب توماس على الفور

ـ نعم يا أبت ، ولكن ما الذي أتى بك هنا الآن ؟ وماذا تفعل ؟

وما لبث أن تناول رشفة عميقة من شراب البيرة ، تماما كما يفعل عمال المصهر المتخصصون ، ثم ناول اباه القدح ٠

ـ انظر اليه الآن٠٠ انه يبدو كالعامل المحترف المحنك ـ هكذا كان يفكر الوالد وهو ينظر اليه ـ ثم عاد يسأله في نبرة ساخرة

ـ ومتى يحين الوقت الذي تصبون فيه المعدن المنصهر ؟ لقد أتيت خصيصا أشاهده وهو يتدفق من فوهات مراجلكم ٠٠

أجاب الصبي بحماس وثقة

ـ لقد انتهينا فعلا من عملية الصب ـ كدفعة أولى ـ يا والدي من وقت مضى ، وها نحن الآن نتأهب لصب الدفعة الثانية ٠

وما ان سمع والده هذا الكلام حتى تراجع مذهولا وقال :

ـ ماذا تقصد بالدفعة الثانية ؟ ومتى كانت الدفعة الأولى اذن ؟

ـ في منتصف الليل تماما ، هكذا اجاب توماس وقد لمعت عيناه ببريق النصر ثم اردف :

ـ لقد أفرطت في النوم يا ابي ، وعلى كل لاتخش شيئا فان خلفك يقوم بعملك على الوجه الأكمل ويحافظ على الوقت بكل دقة ، ثم تابع حديثه يسأله :

ـ اتعرف يا والدي ما المقصود بعملية الصهر السريع ؟

ـ ماذا اسمع؟ أهكذا تخاطبني؟ قالها (ستانيرلاف) الشيخ بلهجة ، تنم عن التبرم والضيق الشديد ، ولم يلبث بعدها ان غرق في ظل صامتا ، كالصخر الأصم ، بينما استطرد ابنه في حديثه مفسرا :

ـ ان عملية الصهر السريع لا تأخذ من الزمن أكثر من ساعة ونصف بالابتداء، ذلك اننا نقوم بها علميا أي وفق نظريات علمية بحتة ـ ولذلك يطلق عليها (عمال الصهر السريع) انها مدرسة مختلفة تماما كما ترى ..

ظل الوالد صامتا لبرهة وقد تراحمت الافكار في خاطره واخذ يتأمل في عمق ..ياله من عالم عجيب ذلك الذي نعيش فيه .. ويالها من معجزات تلك التي يصنعها هؤلاء .. كم زمن مضى منذ ان سمعت صيحة ابني الأولى يعلن بها خروجه الى هذا العالم الصاخب ... أماه لقد أصمنا وقتنا هياء ونحن وقوف نترقب ظهور الوهج .. حقا لقد علينا النوم ، كما قال توماس انفسنا ، فاسترسلنا في سباته ، وبذلك فقدنا رؤية الوهج ـ لقد وقفنا شخص بأبصارنا خلال النافذة .. ولم ندر حينذاك أنه قد لاح وخبا من وقت مضى.

وبعد لحظة أفاق (ستانيرلاف) من تأملاته وتابع الحديث :

ـ لقد أحضرت معي بعض الخمر والزبد من أجلك ..

ـ أصغت يا أبت فاني أتصور جوعا .

وعند ذلك الحين و (ستانيرلاف) لا يستيقظ في جوف الليل كسائر عادته، ليتطلع من خلال النافذة الى ضوء الوهج المنبعث من مرحل الصهر .. اذا ما حدى ملاحقة هؤلاء القوم من عمال الصهر السريع ؟. فاذا ما استيقظ في الواحدة صباحا فانه لواجدهم وقد صنعوا ما صنعوا من معدن، في منتصف الليل، أما ان استيقظ في منتصف الليل فلا شك يكونون قد أتموا العملية في الساعة الحادية عشرة ـ اذن ان أفضل شيء يا أماه هو ان نستسلم للنوم وملأ منه الجفون فكم من ليال طوال قضيناها في سهر متواصل .